بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث التاسع

بيروت في عهد الدولة العثمانيّة الى واقعة عين داره (١٥١٧–١٧١١)

لمّا كسر السلطان العثماني سليم الاوّل شوكة الشراكسة بانتصاره على ملك مصر قانصوه الغوري في مرج دابق في نواحي حلب سنة ١٥١٦ (٩٢٢ هـ) ثم على خلفه طومان باي ابن اخيه في القاهرة (١٥١٧) ضمّ الى دولة بني عثمان مصر والشام وجزيرة العرب وأسرع الى تنظيم ولاياتها . واذ نظر بلاد الشام في حالة من الفوضى كادت تحوّلها الى خراب يباب أحبّ ان ينهض بها من كبوتها ويعيد اليها شيئاً من رونقها السابق فولّى الامير فخر الدين ابن عثمان بن معن على الشوف والغرب وبعض مقاطعات لبنان لانهُ كان حارب المصريين مع جيوشهِ ونائبهِ جان بردي المعروف بالغزالي . وعلى خلاف ذلك اعتقل امراء الغرب لثباتهم على امانة مماليك مصر فبقوا مدّة معتقلين في قلعة دمشق ثم في حلب الى ان فدوا انفسهم بالهدايا وعادوا الى مواطنهم

وكانت نيابة الشام من قبل السلطان سليم للغزالي فاستفحلت سطوتهُ وامتدّ نطاق ولايتهِ على معظم مدن الشام وفلسطين والسواحل ومن جملتها بيروت فحدّثتهُ نفسهُ بالاستبداد في الحكم . ولمّا توفي السلطان سليم وخلفهُ ابنهُ السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠) جاهر الغزالي بالعصيان وادّعى لنفسهِ الملك وحشد الجند . فارسل سليمان عسكرًا لمحاربتهِ فقُتل في قابون قريباً من دمشق وتشتّت اصحابهُ

ثمّ اخذت الدولة منذ ذاك الحين تعيّن نوّاباً على سورية بصفة ولاة وقسمتها الى

ثلث ولايات دمشق وطرابلس وحلب وضمّت الى كل ولاية عدّة الوية او سناجق . وكانت بيروت احدى سناجق دمشق الشهرة . وكان ولاة دمشق يتناوبون واحدًا بعد آخر قلّما يزيد زمن ولاية احدهم على سنة او سنتين حتى بلغ عددهم ١٣٣ والياً في مدّة ١٨٤ سنة فجرى لسبب ذلك منازعات وتعدّيات ومظالم لا تُحصى ليسرع الولاة ويجمعوا ما يطمعون فيه من المال قبل استبدالهم فينالوا رضى الباب العالي بوضع الضرائب الباهظة على الاهلين ويحرزوا لانفسهم قسطاً واسعاً منها

وكانت ثلثة بيوت من الامراء تتقاسم الحكم في لبنان بنو معن وبنو عمّاف وبنو سيفا . وكان بنو معن اوسعهم املاكاً واكبرهم سلطة حكموا على الشوف والغرب وساحل صيداء وبيروت . وحكم بنو عمّاف التركمانيّون على كسروان وامتدّ حكمهم من نهر الكلب الى بلاد جبيل وجهات حماة . واما بنو سيفا فكانوا متولّين على عكّار وحصن الاكراد . وكان اللبنانيّون في شمالي لبنان يُعنَون بامورهم تحت نظارة مقدّمين من مواطنيهم كانوا يدفعون للدولة ما يجمعونهُ من الضرائب وكثيرًا ما حدث بين هؤلاء الامراء مناوشات ووقائع لاسيما الحزبين الشهيرَين القيسيين واليمنيين وربّما تداخلت عساكر الدولة في امورهم تارةً مع اولئك وحيناً مع هؤلاء على مقتضى سياستها . واوّل من انقرض من الامراء بنو عمّاف . فتك بآخر امرائهم يوسف باشا سيفا فاستولى على املاكهم هو وبنوه . ولم تَطُل مدّة بني سيفا فوقع بينهم وبين بني معن وقائع عديدة كانت الدولة غليهم وتعقّب بقاياهم شاهين باشا والي طرابلس فاباد ذكرهم وملك المعنيّون على اقطاعاتهم سنة ١٦٣٧

وكذلك بنو تنوخ امراء الغرب سابقاً فانهم لم يصيبوا بعد الفتح العثماني حظوةً وبقوا في حصونهم خاملين ومنقسمين بين قيسيين ويمنيين حتى قام احد انسبائهم علَم الدين اليمني وكان تولّى الامر بغيبة الامير فخر الدين المعني الى الاستانة فسار الى مقرّ الامراء في اعبيه فباغتهم بجنوده واغتال بهم فقتلهم عن بكرة ابيهم ولم يفلت منهم احد وذلك سنة ١٦٣٣

*

وكانت بيروت في تلك الاثناء لا تزال محصّنةً بسورها وبرجيها السابق ذكرهما مع السلسلة الممتدّة بينهما الى قلعتها تزينها الابنية التي شادها امراء بني الغرب وكان

السيّاح الفرنج القادمون الى زيارة الاراضي المقدسة يزورونها فيصفونها كمدينة غنيّة ذات تجارة واسعة ويذكرون مرفأها انهُ عميق المياه امين المستن

أمّا اهل بيروت فكان عددهم قد قلّ الى نحو العشرة الآلاف لما أصابها من الاوبئة . ذكر منها جلال الدين السيوطي في مقامتهِ الطاعونيّة (ص ٦٩ــ٧٥) طاعون السنتين ٨٩٧و٨٩٨ (١٤٩١ــ١٤٩٢) الذي عمّ القطرين الشامي والمصري وفتك باهل بيروت فذكّرهم بطاعون سابق وصفه ابنُ الورديّ في رسالتهِ « النبا عن الوبا» (نسخة برلين Ms de Berlin, 8550) روى فيها ما ألمّ ببلاد الشام من نكباتهِ

وفي اوّل العهد العثماني حصل في بيروت غلاء شديد ومجاعة بسبب الحروب واضطراب الاحوال وظهور الجراد حتى غلت اسعار كلّ المأكولات وكلّ الحاجيّات كما اخبر حمزة بن سباط في ختام تاريخهِ سنة ٩٢٦ه (١٥١٩ م) قال «ان مُثبل القمح في بيروت بلغ ثمنهُ ١٥٠ دينارًا»

وكانت بيروت مع ذلك لا تزال تستوقف انظار الطامعين بملكها لوقوعها في وسط البلاد على ساحل البحر بجوار لبنان وهي فرضة دمشق . وبقي مينا بيروت على حالتهِ من الصلاح والامن حتى انهُ في ذلك العهد كان معدودًا من احسن مراسي السفن . فذلك ما أثار مطامع الامراء المنيين والتنوخيين وبني عسّاف ليبسطوا سيطرتهم على بيروت لاسيما اذ رأوا ولاة دمشق منهمكين في اشغالهم يحرصون على حفظ منصبهم مع قصر ولايتهم . وربّما كانت تقع الحروب بين الولاة الثلثة الشام وحلب وطرابلس فيقطعون بيروت للامراء الموالين لهم وانصارهم في حروبهم وانّما بقيت مدّةً تحت حكم امراء العرب

﴿امراء بني عسّاف في بيروت﴾ ولما ضعفت اسرة التنوخيين بما دهمها من النكبات في القرن السادس عشر الى ان فتك بهم عالم الدين اليمني صار الامر على بيروت لبني عسّاف . وكان هؤلاء الامراء التركمان منذ عهد ماليك مصر مستولين على كسروان وبعض سواحل الشام ثم ثبّتهم السلطان سليم الاوّل في املاكهم وحكّمهم على كسروان وبلاد جبيل لمحاربتهم مع جنودهِ ضدّ الدولة المصريّة . وكانت وفاة الامير عسّاف كبيرهم سنة ١٥٢٣ . فتولى من بعدهِ ابنهُ الامير حسن بامر والي دمشق لكنّ اخاهُ قايتباي حسدهُ على الولاية ولم يزل يترصّدهُ حتى اوقع بهِ وباخيهِ

حسين فغدر بها اذ سارا يوماً الى بيروت . ومات قايتباي سنة ١٥٣٣ فخلفهُ المنصور ابن اخيهِ الحسن فعظم شأنهُ وسعى بتوسيع نطاق امرتهِ حتى امتدَّت ولايتهُ على كل الساحل من بيروت الى البترون ثم الى جهات لبنان الشمالية حتى حدود حماة قرَّرها لهُ السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٢ فصار لهُ عليها الحلّ والربط يولّي عليها من يشاء . وحارب الامراء بني سيفا فغلبهم وكان جعل مقرَّه في غزير وادخل في خدمتهِ المشائخ آل حبيش . وترك آثارًا مشكورة من ولايتهِ التي بلغت ٤٧ سنةً فتوفي سنة ١٥٨٢ . ولم تطل بعدهُ ولاية بني عسَّاف فان محمَّد ابن الامير منصور قُتل بعد عشر سنين (١٥٩١) كمَنَ لهُ عدوُّهُ يوسف باشا سيفا في مضيق المسيلحة قريباً من بترون فاغتالهُ فمات ولم يعقب وبهِ انقرضت سلالة بني عسَّاف واستولى يوسف باشا سيفا على املاكهِ في جهات طرابلس ولم تطل مدَّة ولاية بني سيفا كما سبق

﴿بنو معن في بيروت﴾ وكان نجم بني معن يزداد سطوعاً فبعد وفاة الامير فخر الدين الاوَّل ابن عثمان الذي كان دعاهُ السلطان سليم الاوَّل بسلطان البرّ فأولى لبنانَ وسواحلهُ اماناً ورقياً سنة ٩٥١هـ (١٥٤٤م) خلفهُ ابنهُ الامير قرقماز فلم يبلغ من الجاه والسلطة ما بلغهُ ابوهُ . وفي ايامهِ أقطعت الدولة بيروت الامير منصور عسَّاف فتولَّاها مدَّةً وبنى لهُ فيها قصرًا جميلًا وبنى بقربه جامعاً نُسب اليهِ وشيَّد دار ولايتها

وكانت وفاة الامير قرقماز سنة ٩٩٣هـ (١٥٨٥م) وهو مختفٍ في مغارة جزّين من وجه الدولة فرارًا من ضرائبها الباهظة وخلَّف ولدَين الاميرَين يونس وفخر الدين ضمَّها اليهِ خالهما الامير سيف الدين التنوخي وسلَّمها بعد حين ولايتها في الشوف

ولكليهما اخبار واسعة ومآثر جليلة ووقائع عديدة مع ولاة الدولة والامراء المجاورين لهم . وقد اشتهر خصوصاً الامير فخر الدين الذي عُرف بالكبير . فهذا كان مولدهُ سنة ١٥٧٢ . تربَّى بعد وفاة والدهِ في كسروان في ضيافة بيت الخازن ثمَّ خلف اباهُ في ولاية الشوف . وهو الذي مدَّ نحو اربعين سنة ألفتَ اليهِ انظار مواطنيهِ واستولى على قسم كبير من بلاد الشام وجنَّد الجنود وتصدَّى لولاة الدولة فغلبهم فسارت بذكرهِ الركبان حتى عرفهُ القاصي والداني بل تجاوزت اخبارهُ البحار فاصبح اسمهُ في بلاد الفرنج مرادفاً لبطل الشرق وسلطان الشام ومحامي النصارى . وكان بين

حاشيته منهم رجال فضل وذكاء لاسيما من مشايخ آل الخازن وكان كاتبهُ أبا نوفل نادر الخازن

وكانت بيروت في جملة البلاد الواقعة تحت حكم الامير فخر الدين الكبير فخصّها بعنايته وأعارها نظرهُ لترقية امورها المادّية والادبيّة فرمّم ما خرب من ابنيتها وعُني بتحصينها وتشجير غابة صنوبرها القديمة وابتنى لها جامعاً يُعرَف الى اليوم باسمه واتّخذها كدار سكناهُ ومقام عزّه ورونق دولته فبنى فيها الدور الرحبة والمعاهد البهجة والجنائن الغنّاء. ومن مبانيه برجُ الكشّاف الذي بقي الى اواخر القرن الماضي فهُدم وأُقيمت في مكانه الحوانيت والمقاهي. وبنى الخان المعروف بخان الوحوش ثمّ الحمّامات والاسواق والفنادق

وكان تحت يده مهندسان ايطاليّان اسمهما تشيولي(Cioli) وفاني (Fagni) كانا يتوليان هندسة تلك المباني على طراز بديع فاصبحت بيروت بها مزدانةً برونق جديد كان يستوقف انظار القادمين اليها من السيّاح. وكانت سوق التجارة في ايّامه رائجة ايّ رواج. وكانت السُّفن الاوربيّة الفرنسويّة والايطالية والهولنديّة تنقل الى بيروت محصولات البلاد الغربيّة وتستعيض عنها بخيرات البلاد الشرقيّة لاسيما الحرير والمنسوجات الوطنيّة والغلّات الوافرة. وانّما اساء اليها والى المدن الساحليّة اذ جنح الى رأي من اشار اليه بان يطمّ ميناءها ليمنع اعداءهُ عن دخولها ففعل ذلك في بيروت وصيداء وعكّا فكان هذا من بعده احد اسباب انحطاط التجارة في سواحل الشام الى القرن التاسع عشر. وفي ايّامه بنى الامير منذر التنوخي جامعاً يُعرف باسمه الى اليوم

وبنى الامير فخر الدين للفرنسويين خاناً في صيداء احتلّهُ قناصلهم وتجّارهم وامضى معاهدةً مع تجّار فلورنسة فاتّخذوا لهم مخازن واسعة واقاموا لهم قناصل. فكانت هذه المعاملات الوديّة داعياً لهُ الى ان يلتجئ الى غراندوقة فلورنسة قزما الثاني من سلالة مادیشیس سنة ١٦١٣ لما ضايقهُ اعداؤهُ وجيوش الدولة المرسلة لمحاربته فابحر الى ايطالية وبقي في ضيافة امير فلورنسة مدّة خمس سنوات حتى تمكّن من العود الى وطنه فاستأنف اعمالهُ في ترقية وطنه والدفاع عنهُ بالاستحكامات وتشييد القلاع وكان في خدمته جيش من السُّكمان وغيرهم المتجنّدين بالاجرة بلغ عددهم

على ما قيل الى نحو ١٠٠،٠٠٠ لولا انَّ الدولة لم تزل تترصَّدهُ واستراب بنيَّتهِ في طلب السلطنة فلم تزل تمدُّ ولاتها بالجيوش البرّيَّة والبحريَّة حتى قبض عليه احمد كجك سرعسكرها في قلعة جزّين فقُتل الامير يونس اخوهُ وأُرسل هو مغلولًا مع اولاده الى الاستانة حيث قُتلوا بامر السلطان مراد الرابع ولم ينجُ من اولاده الاربعة الّا صغيرهم الامير حُسين فعُفي عنه (٣ نيسان ١٦٣٥م)

وكان ابن اخي الامير فخرالدين ملحم بن يونس نجا من أسر أحمد كجك واختفى في جبل الشيخ حتى سنحت لهُ الفرصة فعاد الى ولاية عمّهِ فخر الدين بمناصرة محازبيهِ القيسيين سنة ١٦٣٦ وحكم على بيروت وسواحل الشام مدَّة عشرين سنة وتوفّي في صيداء سنة ١٦٥٨ اودت بحياتهِ حُمّى خبيثة . وقام بالامر بعدهُ ولداهُ الاميران احمد وقرقماز الّا ان محمّد باشا الارناؤوطي تعقَّبهما بامر الصدر الاعظم محمّد كوبرلي فقُتل قرقماز سنة ١٦٦٢ غدر به حاكم صيداء محمّد باشا . امّا احمد اخوهُ فاشتدَّ ساعده وحارب اليمنيَّة فانتصر عليهم في حي بيروت المعروف ببرج الغلول سنة ١٦٦٤ واستمرّ في حكمهِ آمناً الى سنة وفاتهِ ١٦٩٧ فمات دون عقب وانقرضت بموتهِ سلالة بني معن

وكانت الدولة اخذت منذ السنة ١٠٦٧ه (١٦٥٦) تعيّن ولاةً لبيروت وصيداء فلم يقهروا الامراء الوطنيين . كان اوَّلهم محمّد باشا الارناؤوطي المذكور ثمَّ قبلان باشا دفتر دار صيداء ثمَّ محمّد باشا والي صيداء ثمَّ أفرزت بيروت عن صيداء فدبّرها ولاة عثمانيُّون الى سنة وفاة الامير احمد المعني فسمح الوالي لاهل لبنان ان ينتخبوا بعض الشهابيين عوض المعنيين لقرابتهم من بني معن فوقع الاختيار على الامير بشير الشهابي فاستولى على الولايات التي كانت تحت حكم المعنيين الممتدَّة من جهات صفد الى نواحي الحجَّة شمالي لبنان . ومما اشتهر به الامير بشير الاوَّل انَّهُ قاتل في جانب الدولة الشيخ شرف الدين المتوالي صاحب بلاد بشارة فكسرهُ وقادهُ اسيرًا الى والي صيداء وضمَّ بلادهُ الى ولايتهِ . توفي الامير بشير في صفد السنة التاسعة من ولايتهِ (١٧٠٧)

وخلفهُ الامير حيدر فحكم البلاد من السنة ١٧٠٧ الى ١٧٣٠ . وهو الذي حارب اليمنيَّة وانتصر عليهم في واقعة عين داره الشهيرة فاستأصل شأفتهم في السنة

١٧١١ بعد ان كانت قويت شوكتهم لاسيما بيت علم الدين فكان علي بن علم الدين ويوسف علم الدين وآلهما يسكنون بيروت ويتصرفون بامورها بصفة كونهم خلفاء بني المرب. فصار بعد كسرتهم الحكم للشهابيين دون منازع

(لهُ تتمّة)

تاريخ مدفن عبراني في بيروت

من القرن الحادي عشر

لحفرة الاب وبنه موتزد اليسوعي

هذا اثر نفيس هدانا اليه جناب المهندس ادمون افندي بشاره مدير النافعة حاضراً في لبنان الكبير. فنتقدّم لحضرته شكرنا عن لطفهِ في إلقات نظرنا اليهِ كما يشكرهُ كلُّ من يُعنى بتاريخ عاصمتنا العزيزة

وترى هنا صورة الكتابة المذكورة التي نقلناها عن صورتها الشمسيّة المكبّرة وهي مرقومة على حجر كلسي طولهُ ٣٨ سنتمترًا في عرض ٣٦ س وسمك ١٥ س

נאסף חמים
הלו(י) בר מנשה
ראס הקהל
נק שנה אחא
לפטרוס

فقراءتها لا شكّ في صحّتها وقد ساعدنا على ذلكَ معانيها حضرة الاب سباستيان رونزفال. ولكن يجب ان يُلاحَظ انَّ الحفّار اذ لم يجد فسحةً كافية ليرقم الحرف الاخير من الكلمة رقمها بين السطرين الثاني والثالث. امّا الرابع فيبتدئ بكلمتين